

مَجَلَّةُ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ

مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية العلوم الشرعية مسلاتة

العدد السابع

يونيو 2020





مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية العلوم الشرعية مسلاية

المجلة ترحب بما يرد إليها من أبحاث، وهي على استعداد لنشرها بعد التحكيم.
المجلة تحترم كل الاحترام آراء المحكمين وتعمل بمقتضاها.
كافة الآراء والأفكار المنشورة تعبر عن آراء أصحابها ولا تتحمل المجلة تبعاتها.
يتحمل الباحث مسؤولية الأمانة العلمية وهو المسؤول عما ينشر له.
البحوث المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها نشرت أو لم تنشر.
حقوق الطبع محفوظة لكلية العلوم الشرعية بمسلاية.



توضيف المكان في شعر بقاء الكين زهير

د. عبدالله أحمد التوات

توظيف المكان في شعر بهاء الدين زهير

د. عبدالله أحمد الوتوات

a.alwetwat@edu.misuratau.edu.ly

جامعة مصراتة – كلية التربية

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على نبيّه الأمين ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم من الصديقين إلى يوم الدين .

وبعد ...

لا شك أن للمكان حضوراً قوياً وفاعلاً في النفس الإنسانية ، إذ يرتبط بوعي الإنسان منذ نعومة أظفاره ، فيخترن في ذاكرته أشياء كثيرة من العواطف والذكريات الإيجابية أو السلبية .

كما يختزن في مخيلته العديد من جزئيات هذا المكان صغيرة كانت أو كبيرة ، وتظل محبوسة في ذاكرته حتى يجد لها المتنفس ولو بعد حين ، فالمكان ليس مجرد مساحة ، أو قطعة أرض أو حيّزاً جغرافياً لا يعني شيئاً لهذا الإنسان ، بل هو جزء لا يتجزأ من حياته ؛ لذلك نجده يشكل حضوراً قوياً عند الكثير من الشعراء ، فنراه يترنمون بأسماء البقاع والبلدان والأماكن التي كان لها وقع وتأثير خاص في نفوسهم .

والمكان في تصوّر الإنسان القديم سابقٌ للزمان والحركة ، لأنّ أيّ جسم يجب أن يوجد أولاً في المكان ، ومن ثم تتحد طبيعته في الحركة وزمانها فيما بعد ، وظلّ هذا التصور الميثولوجي للمكان حتى القرن الرابع قبل الميلاد ، أي قبل ظهور الفلسفة على يد (طاليس الملطي) (1)

وقد اعتمدت في إعداد هذا البحث على المنهج التكاملي ، وهو المنهج الذي يجمع بين التاريخ ، والوصف ، والتحليل ، ويأخذ من مناهج مختلفة قديمة وحديثة في آن واحد .

واقتضت طبيعة موضوع البحث أن أجعله في مبحثين تسبقهما مقدمة ، وتختمه خاتمة ، ذكرتُ فيها خلاصة النتائج والمعطيات التي توصلت إليها وهي تعد تلخيصاً مجملاً لعناصر هذا البحث .

(1) ينظر: نظرية المكان في فلسفة ابن سينا ، حسن مجيد العبيدي ، مراجعة وتقديم: عبدالأمير الأعسم ، ص 17 .

ثم ذكرت المصادر والمراجع التي أفادتني في هذه الدراسة ، وابتعدت هذه الدراسة عن العناية بحياة الشاعر والظروف التي مرّ بها ، كونها دراسة نصية أسلوبية تبحث عن كيفية تناول (المكان) في شعر (البهاء زهير)

وتحدثت في المبحث الأول عن مفهوم المكان لغويًا وفنيًا ، وعن أهمية المكان عند الإنسان بعامة والشاعر العربي بخاصة ، ومما يحمله المكان من رؤى إيجابية أو سلبية أثرت في نفس الشاعر ومن ثم في نصّه الشعري .

أما المبحث الثاني فجعلته للجانب التطبيقي ، حيث حاولت فيه أن أقفَ على أغلب المظاهر المكانية الموجودة في شعره ، وكيف وظّف الشاعر الأمكنة حسب السياق الذي تبعه في شعره ، ونستطيع أن نقسمه إلى المطالب التالية :

1 – المكان في الحديث الطللي .

2 – أماكن الحضارة .

3 – أماكن الطبيعة .

4 – الإيقاع الفني في شعر المكان .

ونتيجة لهذه الصلة الحميمة بين الإنسان والمكان ، أصبح الحس المكاني جزءًا من الطبيعة البشرية ، فهو حسٌّ أصيل وعميق في الوجدان البشري ، وإذا ما تعرّض أحدٌ قطبيه (الإنسان أو المكان) إلى الضياع أو الخطر ، فإنّ هذا الحس يستنفر كل مكان التصدي في سبيل الحفاظ على كيانه .

والمكان لوحة إنسانية تظهر وجوهًا مختلفة تنم على نفسية المبدع لحظة الإبداع ، ، فيتجلّى في المكان الأمن والمطمئن الذكريات السعيدة والزمن المشرق ، أما المكان الذي يتجلّى فيه قلق الشاعر وغرته النفسية فيرتبط بالذكريات الحزينة وبالزمن النفسي الحزين ، وحين يتأمل القارئ شعر (البهاء زهير) يتساءل :

هل الحدث هو من يخلد المكان ؟ أو المكان هو من يخلد الحدث ؟

لعلّي أقرب من الصواب إذا قلتُ : إن المكان هو من يخلد الحدث في شعر شاعرنا ، وذلك حين يندمج المكان والحدث في قلب واحد ، فالمكان مهما كان جميلًا أو مقدسًا أو أليفًا ، يبقى الناطق الوحيد بأسرار الماضي ، ويصوغ لنا الحاضر والمستقبل .

ويذهب هذا البحث إلى دراسة المكان في شعر الشاعر المملوكي (بهاء الدين زهير) (1) من خلال تجربته التي عكست الرؤية الشعرية للذات المبدعة .

ومما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع للبحث عدة عوامل أهمها :

1 - هو أنني معجبٌ كطائفة كبيرة من العرب بشعر هذا الشاعر ، حيث قال فيه صاحب كتاب الوافي بالوفيات : "ما تعاتب الأصحاب ولا تراسل الأحيابُ بمثل شعر البهاء زهير ، وشعره في غاية الانسجام والعدوبة والفصاحة وهو السهل الممتنع" (2)

2 - أنّ دراسة المكان تسير بالباحث إلى عدة مستويات منها الفلسفية والنفسية ، فأردتُ أن أجرب هذين الاتجاهين كونهما من أهم المسائل التي يقوم عليها الديوان .

3 - خصوبة المادة الشعرية ، الأمر الذي يجعلها جديرة بالبحث والدراسة .

4 - الرغبة في سبر أغوار دلالة المكان في الشعر المملوكي ، ومدى فاعليته في صياغة المعاني الشعرية .

5 - محاولة إضافة جديدة في مجال الدراسة المملوكية ، خاصة أنني لم أجد دراسة - فيما أعلم - عن المكان في شعر الشاعر .

المبحث الأول : المكان لغويًا وفنيًا :

يجدر بنا قبل الوقوف على المكان فنيًا أن نوضح حدّه اللُّغوي ورسمه ، حيث جاء في لسان العرب : " المكان : الموضع ، والجمع أمكنة كقذال وأقذلة ، وأماكن جمع الجمع ، قال ثعلب : يبطل أن يكون (مكان) فعالاً ؛ لأن العرب تقول : كن مكانك ، وقم مكانك ، واقعد مقعدك ، فقد دل هذا على أنه مصدر من (كان) أو موضع منه " (3)

(1) ينظر ترجمته إلى : الوافي بالوفيات ، صلاح الدين الصفدي ، تحقيق : أبو عبدالله جلال الأسيوطي ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، 11 / 374 وغيره من كتب التراجم .

(2) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(3) لسان العرب ، ابن منظور الإفريقي ، عُني بتصحيحه أمين محمد عبد الوهاب ، محمد الصادق العبيدي ، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي بيروت - لبنان ، ط 3 ، 1419 هـ - 1999 م ، مادة : (م .ك .ن) .

وقال الزبيدي: "المكان، الموضع الحاوي للشيء، وعند بعض المتكلمين أنه عرض، وهو اجتماع جسمين: حاوٍ ومحوي، وذلك لكون الجسم الحاوي محيطاً بالمحوي، فالمكان عندهم هو المناسبة بين هذين الجسمين، وليس بالمعروف"⁽¹⁾

ويحده ابن دريد بقوله: "المكان مكان الإنسان وغيره، والجمع أمكنة، ولفلان مكانة عند السلطان أي منزلة"⁽²⁾

ويورد (الجرجاني) آراء الحكماء والمتكلمين في (المكان)، فيقول: "المكان عند الحكماء هو السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس، الظاهر للسطح من الجسم المحوي، وعند المتكلمين هو الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وينفذ فيه أبعاده"⁽³⁾

ثم يقسم المكان إلى قسمين: مكان مهم، ومكان مُعَيّن، فالمكان المهم هو: "عبارة عن مكان له اسم تسميته به بسبب أمرٍ غيرٍ داخل في مُسمّاه كالخلف، فإن تسمية ذلك المكان بالخلف إنما هو بسبب كون الخلف في جهة، وهو غير داخل في مسماه.

والمكان المُعَيّن: هو عبارة عن مكان له اسم تسميته به بسبب أمر داخل في مسماه، كالدار، فإن تسميته بها بسبب الحائط، والسقف وغيرها، وكلها داخل في مُسمّاه"⁽⁴⁾

وهكذا نجد أن المفهوم اللغوي للمكان يكاد يكون واحداً، فالعُرف اللغوي يرى أن للمكان حدًا واحدًا، وهو (الحاوي)، أو (الكائن)، سواء أكان مُدرِّجًا بالحواس أم بالتصور الذهني.

كما أنّ المكان يتحوّل إلى بُعْدٍ جمالي من أبعاد النص الأدبي، لما يمنحه من إمكانية الغوص في أعماق البنية الخفية في قلب النص، ولن يدّعي التحليل الأدبي "فهمة السليم للنص إذا هو تجاهل أو تجاوز النظر إلى المكان؛ لأنّ مثل هذا الصنيع يعد تحليلاً بعيد الصلة عن إطاره المادي والمعنوي، وكل ملامسة للمكان إنما هي ملامسة لشبكة العلاقات التي تربط الأشخاص بالمجال المعيشي ارتباط وجود وانتماء وهويّة، فالمسألة

⁽¹⁾ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: حسين نصار، مطبعة حكومة الكويت، 1394 هـ - 1974 م، مادة: (م. ك. ن).

⁽²⁾ جمهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ط 1، دار الباز، 1345 هـ، 3/ 171.

⁽³⁾ التعريفات، على بن محمد الجرجاني، طبعه وصححه: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت - لبنان، 1403 هـ - 1982 م، ص 227.

⁽⁴⁾ التعريفات، على بن محمد الجرجاني، ص 227.

المكانية لا تقف عند حدود التأطير وحسب ، وإنما تتعداها إلى مجالات أوسع ، تضطلع بها الدراسات الإنسانية في مختلف اهتمامتها وحقولها " (1)

المكان فنيًا :

أخذَ الاهتمام بالمكان عند الباحثين المعاصرين يكتسب طابعه الفني ، فالمكان حينَ وجود " وهو فضاء تتعدد وظائفه ومعانيه بالنسبة لصاحبه وللآخرين ، وكل اعتداء على جزء منه قد يولد ثورة واحتجاجًا ، وقد يكون في صورة أخرى دلالة على التقرب والمحبة ، وهي معانٍ لاتنشأ من (المكان) أصالة ، بقدر ما تنشأ عن الظواهر المصاحبة " (2)

ويرى بعضهم أن المكان " سلسلة من الأنماط الشبئية المتوزعة التي تحتل حينًا ، ولها أبعادها وخصائصها المادية ، ففهم المكان قائم أولاً على الخبرة والتجربة ، أن نفهم المكان يعني أن نجربه ، وبذلك يصبح المكان إطارًا للأشياء ، ينطوي عليها ويبرزها ، ويصبح التعبير مكانيًا هو تعبيرٌ عن خصائص الموضوعات المادية المحيطة بنا التي سرعان ما تتكون صلاتنا بها" (3)

إذاً المكان ليس ذلك المعطى الخارجي المحايد الذي نعبه دون أن نأبه به ، إنما يعتبر حياة لا يحده الطول والعرض فقط ، كما له خاصية الاشتمال والالتصاق بالذات الإنسانية ، ولا يمكن إغفاله أو طرحه من الدراسات الأدبية ، " فعلاقة الشاعر بالمكان ذات أبعاد متعددة تستحضر الواقعي والخيالي والوهمي ، ويكفي أن الشاعر يعيش في المكان على مستوى الوجود الحقيقي ، ويسبح في المكان في عالمه الشعري ، فيستحضر المكان من المعرفة الثقافية ، ويقيم لنفسه وجودًا فيه أو يعدل من صورة المكان الحقيقي ، كما يخترع المكان في الفن ويحتله بالوجود" (4)

وبما أننا تطرقنا إلى (الدراسات الأدبية) حريٌّ بنا أيضًا أن نتعرف على علاقة المكان بالأدب ، فلا شكَّ أنّ " المكان يمثل محورًا أساسيًا من المحاور التي تدور حولها نظرية الأدب ... فقد اهتم الأدب طوال تاريخه بالمكان ؛ لأن الإنسان دائمًا ما يوجد في المكان ، ولأن الأحداث دائمًا ما تدور في مكانٍ ما" (5)

(1) فلسفة المكان في الشعر العربي ، حبيب موني ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2011 م ، ص 2 .

(2) المصدر السابق ، ص 10 .

(3) عبقرية الصورة والمكان ، طاهر عبد مسلم ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، ط 1 ، عمان / الأردن ، 2002 م ، ص 16

(4) شاعرية المكان ، جريدي المنصور الثبيتي ، شركة دار العلم للطباعة والنشر ، ط 1 ، المملكة العربية السعودية ، 1412 هـ - 1992 م ، ص 10 .

(5) حول محطة السكة الحديد ، لادور الخراط ، صيري الحافظ ، مجلة أقلام ، العدد 11 - 12 ، 1986 ، ص 71 .

"وللمكان في الشعر وظيفة خاصة ترتبط بالأسلوب وهي وظيفة تعبيرية، في حين أن وظيفة المكان في الرواية مثلاً هي وظيفة تفسيرية، فأسلوب الشعر هو أسلوب تعبيرية، يعتمد على التكثيف في الزمان والمكان، أما أسلوب الرواية فهو أسلوب تفسيري يميل إلى رصد الأشكال والأحجام وعرض التفاصيل والخصوصيات" (1)

فالمكان في الشعر يتشكّل من خلال اللغة الشعرية التي تمتلك بدورها طبيعة مزدوجة، فلها بعدٌ فيزيائي يربط بين الألفاظ وأصولها الحسية، كما أنّ لها نظاماً من العلاقات التي تعتمد على التجريد الذهني فالنص الشعري تجسّد لغويّ لكائن، وانفتاح خارج اللغة على كينونة في الغياب، أي أنه بذاته علاقة جدلية بين الحضور والغياب، فالحضور هو التجسد اللغوي للنص، والغياب هو البعد الخفي، أو البنية للنص (2)

ومما تقدم يمكن القول أنّ المكان في الشعر لم يعد إطاراً عامّاً لحركة الأحداث وأفعال الشخصيات، وإنما أصبح قضية تنطق بالحياة والموت، ومصير الإنسان ووجوده وعلاقته بالأرض والحياة.

وإذا كانت الدراسات الحديثة قد أعطت اهتماماً للمكان بدراسات خاصة ومستقلة (3) فهذا لا يعني أن علماءنا وأدباءنا السابقين قد غفلوا عنه، ولم ينتموا له في دراساتهم النقدية، بل على العكس، فهناك إشارات وملاحق نقدية سابقة قد أشارت لأهمية المكان في النص الشعري، أو في شاعرية الشاعر، ولكنها تظل مثل كثير من الملاحق النقدية القديمة، تأتي في الغالب- موجزة وبارقة - وبارقة، ولكن فوائدها عظيمة لمن تطرّف مسامعه، ويعي إشاراتها.

¹ (المكان في الشعر العراقي الحديث، سعود أحمد يونس القيسي، (رسالة ماجستير)، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1417 هـ - 1996 م، ص 16.

² ينظر: بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة: محمد الولي محمد العمري، دار نويقال للنشر، ط 1، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص 225.

³ ينظر مثلاً: إشكالية المكان في النص الأدبي، لياسين النصير، وجماليات المكان، غاستون باشلار، وشاعرية المكان، لجريدي المنصوري، والمكان في الشعر الجاهلي، لأمل عابد، وجماليات المكان في شعر السياب، لياسين النصير، والمكان في شعر أمل دنقل، لأمل الخصاونة، هذ فضلاً عن الدراسات التي اختارت جزءاً من المكان وتناولته بالبحث والدرس، نحو: المدينة في الشعر العربي المعاصر، المختار على، والطلل في النص العربي، لسعد حسن كموني، والأطلال في الشعر العربي، لمحمد عبدالواحد حجازي، وجماليات المكان، المدينة المنورة، نموذجاً، لمحمد الديبسي، وغيرها.

فَمِنَ الَّذِينَ أَشَارُوا إِلَى الْمَكَانِ ، مَا نَجِدُهُ عِنْدَ صَاحِبِ الْعَمْدَةِ مِنْ أَقْوَالٍ لِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ ، فَهَذَا الشَّاعِرُ (كُثِيرٌ) قَدْ سُئِلَ " : كَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا عَسَرَ عَلَيْكَ الشُّعْرُ ؟ قَالَ : أَطَوِّفُ فِي الرَّبَاعِ الْمُحِيلَةِ ، وَالرِّيَاضِ الْمُعْشَبَةِ ، فَيَسْهَلُ عَلَيَّ أَرْضَتُهُ ، وَيَسْرِعُ إِلَيَّ أَحْسَنُهُ " (1)

ويرى الجاحظ أن للمكان (البيئة) أثراً في قلة الشعر وكثرته⁽²⁾ ولو لم يكن للمكان حظوة عند الشاعر العربي؛ لما وجدنا كثيراً من النصوص الشعرية القديمة تُفتتحُ بالوقوف على الأطلال، كبعض قصائد المعلقات التي نالت اهتماماً كبيراً من النقاد والشرح القدامى والمحدثين، وما هذا الوقوف إلا إشارة واضحة للعلاقة القوية بين الشاعر العربي والمكان، فهو لصيق به مهما غاب عنه، أو أصابه التغير، أو انتقل إلى غيره، يظل يخترنه في ذاكرته ويتغنى به، فالمكان ليس بأبعاد هندسية تحكمها المقاييس والحجوم فحسب، وإنما هو بالإضافة إلى ذلك: "نظامٌ من العلاقات المجردة يستخرج من الأشياء المادية الملموسة بقدر ما يستمد من التجريد الذهني، أو الجهد الذهني المجرد" (3)

المبحث الثاني: الجانب التطبيقي:

المطلب الأول: المكان في الحديث الطللي:

لم يكن الطلل ظاهرة جاهلية وحسب، وإنما كان الطلل وسيظل شارة الشعر العربي ماضياً وحاضراً ما دام الطلل يسكن الذات العربية هاجساً لا يتحوّل ولا يريم، وإنْ خَفَتَ ذكره حيناً، يعود أحياناً أخرى وهو أشد توهجاً وحضوراً، "إنّ فكرة الأطلال في الشعر لم تكن فكرة مجردة، وإنما هي تجسيد لحس الصحراء الثاوي في عقل الشاعر، وتركيز لقيم الوجود الإنساني ونشاطه على المكان الفاعل بالحياة، ذلك الوجود الذي لا يقوم إلا على (وطن حقيقي) و(قيم) إيجابية سائدة و(ممارسة) فعلية تجسّد تفاصيل التعامل مع الواقع" (4)

⁽¹⁾ العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد معي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط 4، 1972 م، 1/206.

⁽²⁾ الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط 1، 1386 هـ، 4/380.

⁽³⁾ جماليات المكان، اعتدال عثمان، مجلة أقلام، بغداد، ع 2، 1986 م، ص 76.

⁽⁴⁾ المكان عند الشاعر العربي قبل الإسلام، حيدر لازم مطلق، (رسالة ماجستير) كلية الآداب، جامعة بغداد، 1407 هـ، 1987 م، ص 188، 189.

الطلل هو دمج الفكرة بالمادة وتحويلها إلى طاقة حسية بفعل فني متكامل ، وإذا كان الطلل إرثاً فنياً مفروضاً إلا أنه ظل عبارة عن تجارب عبقرية ظلّت هي الأخرى تضيف إلى محتواه وشكله أشياء لا حدود لها ، ولم يعد مفرداً من أي مضمون ، إنما هو الرمز الحقيقي الذي تختفي وراء ستاره تجارب حياة إنسانية فاعلة خلال العصر كله (1)

فمن بكاء الشاعر على الأطلال بكاؤه على (الديار) حيث يقول (2) :

سُروري كَانَ أَنْ أَلْقَاكَ يَوْمًا لِأَجْلِ مَحَاسِنِ لَكَ أَجْتَلِيهَا
فَلَمَّا غَابَ عَن عَيْنِي كَرَاهَا خَلَّتْ مِنْ سَاكِنِي فَسَكَنْتُ فِيهَا
سَأَكْرِمُهَا لِحُرْمَةِ مَنْ حَوَتْهُ وَإِكْرَامِ الدِّيَارِ لِسَاكِنِيهَا

إنَّ حُبَّ الديار وإكرامها يتعلق بساكنيها وتتكتف العلاقة بينهما بترايط متين يشد وثاقه الزمن ، ومن ثمَّ فإنَّ الاستقرار الوافي للموروث الشعري يشير إلى أنَّ الطلل كيان تتجسّد عليه جملة أفكار وممارسات إنسانية وهو مكان فاعل يثير إحساساً بالوطن والانتماء وبالصرع والوجود والمرأة الرمز .

ومما يزيد الأمر بؤساً ويجعل الشاعر أكثر شقاءً ، هو انطماس معالم الأمكنة وصعوبة التعرف عليها ، ومن خلال المقارنة بين ما كان يجري في هذه الأمكنة قديماً وبين قفرها الآن ، ينمو الشعور بخيبة الأمل فيحس أن الأيام الجميلة ذهبت ، والأكثر من ذلك شعوره الأكيد بأن تلك الأيام لن تعود أبداً ، يقول (3) :

سَكَنْتَ قَلْبِي وَفِيهِ مِنْكَ أَسْرَارُ فَلَمَّهِنَّكَ الدَّارُ أَوْ فَلَمَّهِنَّكَ الْجَارُ
مَا فِيهِ غَيْرُكَ أَوْ سِرٌّ عَلِمْتَ بِهِ وَإِنْظُرْ بِعَيْنَيْكَ هَلْ فِي الدَّارِ دِيَارُ

يخاطب الشاعر صاحبه بتحسّر ويسأله (هل في الدار ديّار؟) أي ساكن لها ، فهو منحازاً إلى الماضي الكامن في لا وعيه ، فالطلل حالة وليس مجرد وقوف على آثار ، كما إن رؤيا الشاعر لهذه الأطلال ترتبط بذاته وتعبّر عن مكنون نفسه .

ويقول أيضاً (4) :

وَبَعْدَ بِلَادِي فَالْبِلَادُ جَمِيعُهَا سَوَاءٌ فَلَا أَخْتَارُ بَعْضاً عَلَى بَعْضِ

(1) ينظر : المصدر السابق ، ص 189 .

(2) ديوان بهاء الدين زهير ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، 1400 هـ ، 1980 م ، ص 379 .

(3) المصدر السابق ، ص 140 .

(4) المصدر السابق ، ص 188 .

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الدَّارِ لِي مَنْ أَحِبُّهُ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الدَّارِ أَوْ سَائِرِ الْأَرْضِ

فالمكان الدارس الذي كان مسكنًا للأحبة والذي عفا عليه الزمن ، يتساوى مع باقي الأمكنة الأخرى وليس هناك فرق بينه وبين غيره من الأمكنة ، والشاعر يجدد في رؤيته للطلل على باقي الشعراء ، حيث ابتعد عن التقليد الخارجي وعبر عما تجيش به النفس بكل ما تملكه من عواطف وانفعالات بواقعها ، وهذا لا يتساير مع رغبات النقاد القدامى الذين يفضلون استمرار الشعراء في تقليد القدامى بالمطالع واللفظ والمعنى . ويقول في بكائه على الديار أيضًا (1) :

سَقَى اللَّهُ أَرْضًا لَسْتُ أَنْسَى عُهْدَهَا وَيَاطُولُ شَوْقِي نَحْوَهَا وَحَنِينِي
بِلَادٍ إِذَا شَارَفْتُ مِنْهَا نَجْوَمَهَا بَدَا النُّورُ فِي قَلْبِي وَفَوْقَ جَبِينِي
مَنَازِلُ كَانَتْ لِي يَهْنُ مَنَازِلُ وَكَانَ الصَّبَا إِلْفِي يَهَا وَقَرِينِي

من يستقرئ هذه الأبيات يتجسد أمامه روعة التعبير عما أحس به الشاعر من صدق المشاعر والرغبة بالعودة إلى أماكن الصبا وملاعها فيقول : (كان الصبا إلفي بها وقريني) ، ومعبرًا عن تأثره لفقد هذه المنازل التي مثلت شبابه واحتضنت علاقاته وروابطه الاجتماعية بالأهل والأصدقاء ، وبدأ الشاعر في البيت الأول بذكر الأرض وهو المكان الكبير المفتوح ، ثم انتقل إلى البلاد في البيت الثاني ، وهو المكان المفتوح الأضيق من الأرض ، ووصل إلى المنازل في البيت الثالث وهو مكان مغلق ، فربط مشاعره بالأرض ، ثم بالبلاد ، فالمكان عند شاعرنا لم يعد ذلك البعد الجغرافي ذو الحدود المتعارف عليها من طول وعرض ومساحة خاصة ، إنما أصبح له بعدٌ تجريدي يشعُّ بالعديد من الإيحاءات والانعكاسات التي تتيح للشاعر أن ينطلق من خلاله إلى عالمه الفسيح المصاحب للخيبات والذكريات .

ويستمر الشاعر في ذكر حنينه إلى (المكان) عن طريق بكاء الطلل فيقول (2) :

أَحْبَابَنَا إِنِّي عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوَى أَجِنُّ إِلَيْكُمْ حَيْثُ كُنْتُمْ وَأَعْطِفُ
وَطَّرْفِي إِلَى أَوْطَانِكُمْ مُتَلَقِّتٌ وَقَلْبِي عَلَى أَيَّامِكُمْ مُتَأَسِّفٌ

عبر الشاعر عن الأمكنة بتعبيرات حسية ومعنوية ، فيأتي بالفاظ متضادة (القرب والنوى) ويقصد بها مكانه القريب والبعيد ، ثم يأتي بالفاظ حسية يبين فيها حالته مع المكان فيقول : (وطرفي إلى أوطانكم متلقفت) والنظر مع التلقفت يكون في العادة للشيء البعيد ، كل هذه الإيحاءات أراد منها الشاعر بكاءه على الطلل

(1) الديوان ، ص 360 .

(2) الديوان ، ص 212 .

وتوظيف هذا المكان لدلالات مختلفة "فالمكان يظهر بكل تفصيلاته بهذا الشعر ، كقوة قادرة على تلخيص تاريخ الحالة، وعلى الاحتفاظ بمعانٍ وتشكيلات لا توجد في سواها ، وعلى قدرتها على إعطاء هذا الشعر طاقة متميزة " (1)

مما سبق نلاحظ أنّ الحديث الطللي للشاعر بهاء الدين زهير يقوم على ثلاثة محاور : محور الزمان ، ومحور المكان ، ومحور المرأة ، فيستحضر الشاعر في وقفته على المكان الطللي صورة الماضي الذاهب ، ذلك الماضي المتصل بالزمان والمكان ، ففي هذا المكان تجلّت معاناة الشاعر وغربته ، فهو المكان السابق للحبيبة والوقوف عليه يعتبر استحضاراً لها ، فيتحوّل المكان إلى خلقٍ جديد يحمل صفات جديدة ، وفق رؤية جديدة اتخذت صوراً مثالية وإنسانية ، تجاوزَ بها الشاعر المساحة الجغرافية المجردة للمكان إلى كونها تشكيلاً روحياً ووجدانياً يزخر بالحركة والحياة .

المطلب الثاني: أماكن الحضارة :

المنازل والديار :

أحال الإسلام الحياة الجاهلية إلى حياة حضرية متطورة ، وأخذ الأدب في طريق الحضارة ، فسلك ذوق الأدباء والشعراء والكُتّاب طريق الحياة ، وتبلور هذا الشيء مع حلول العصر العباسي ، وتكوّن بإثره أدبان (قديم وحديث) أو لنقل : وُجد ذوق جديد ينص على الأدب القديم وطرائقه في الأداء ، وظهر ذلك الجديد في ألفظ الأدب وعباراته وفي خياله الحضري ، وفي المعاني المبتكرة العميقة ، وفي أوزان الشعر ، وفي بعض فنونه المستحدثة " فأماكن شعراء البدو هي غيرها في شعر الحضرة ، ويُقاس هذا على مختلف العصور وتبدّل الأحوال الحضارية والمدنية والنظم الاجتماعية السائدة " (2)

ويتمثّل شاعرنا بهذه المفاهيم والآداب في حياته حتى تصبح جزءاً أساسياً من مذهبه الشعري والفني ، ويُعبّر في شعره عن الحياة الحضارية في العصر المملوكي ويجسدها في شعره ويبين دلالاتها المكانية .

(1) ماهية المكان لدى شعراء الجنوب ، عبدالرحمن حمادي ، مجلة الباحث ، ع: 2 ، 3 ، السنة الرابعة ، 1981 ،

1982 م ، ص 277 .

(2) المكان عند الشاعر العربي قبل الإسلام ، حيدر لازم مطلق ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 1407

هـ 1987 م ، ص 21 .

فمن ذلك ذكره (للبيت) وهو من أماكن السكن التي تنتمي إلى المكان الحضاري ، وهو " واحدٌ من أهم العوامل التي تندمج فيها الأفكار والذكريات والأحلام الإنسانية ، ويمنح الماضي والحاضر والمستقبل ديناميات مختلفة " (1)

وقد بلغ البيت من الحرمة والمكانة في الإسلام مبلغاً ، وَعَلَى عُلُوِّ كَبِيرًا ، فقد خصّه الله تعالى بالقدسية ، فممنع الدخول إليه من غير إذن ، فقال جلّ شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾ (2)

والبيت سكن الأحبة والانتماء إلى العائلة التي تحكم الإنسان بكل أواصرها .
ويذكر شاعرنا البيت في شعره معبراً به عن المكانة التي يحظى بها فيقول (3) :

يَغِيبُ عَنِّي وَأَفْكَارِي تُمَثِّلُهُ حَتَّى يُخَيَّلَ لِي أَنِّي أَنَا جِيهِ
لَا ضَمِيمٌ يَخْشَاهُ قَلْبِي وَالْحَبِيبُ بِهِ فَإِنَّ سَاكِنَ ذَلِكَ الْبَيْتِ يَحْمِيهِ

فالشاعر في هذه الأبيات يتمسك بحبه لله سبحانه وتعالى ، ويقول : أنه ليس هناك ضميمٌ يخشاه قلبه مادام متمسكاً بالله ، وأنّ الذي يحميه هو ساكن هذا البيت ، فهذا المكان أصبح له خصوصية عند الشاعر ، وقد ركّز الشاعر على هذه البؤرة من المكان لأنه يمثل مكاناً للاستغفار والرجوع إلى الله .

ويذكر الشاعر (الدار) وهي الجزء من البيت ، وهي من الأماكن المغلقة أيضاً ، وقد تكون الدار منفذاً ومتنفساً للعاطفة الإنسانية فشدة اللوعة والفقد ، وصدق اللحظة الانفعالية التي تسيطر على ذات الشاعر ، تجعل من الدار مكاناً للتعبير عن هذه المشاعر ، يقول بهاء الدين زهير (4) :

وَبَعْدَ بِلَادِي فَالْبِلَادُ جَمِيعُهَا سَوَاءٌ فَلَا أَخْتَارُ بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ
إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الدَّارِ لِي مَنْ أُحِبُّهُ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الدَّارِ أَوْ سَائِرِ الْأَرْضِ

يقف الشاعر وقفة ألم وحسرة يشوبها الحنين إلى موطنه ، حيث يتولد عنده شعورٌ بالغرابة ، وحنين إلى موطنه الكبير وهو (الوطن) ، وإلى موطنه الصغير وهو (الدار) ، ويتشوّق إلى أيام مجد هذه الدار التي شهدت

(1) جماليات المكان ، غيستون باشلار ، ترجمة : غالب هلسا ، الدار الوطنية للنشر ، 1980 م ، ص 44 .

(2) سورة النور ، من الآية 27 .

(3) الديوان ، ص 374 .

(4) المصدر السابق ، ص 188 .

لقاءه مع أهله وأحبته ، وفي مثل هذه التعبيرات يتصل المكان بالزمان " فالمكان الطلي شاخصٌ حي لفعل الزمان وأثره فيه ، وهذه الأطلال والربوع الدارسة في حقيقة أمرها تعبير عن إرادة مضي أثرها الحي" (1) ويستمر شاعرنا في ذكر (الدار) في قصائده فيقول: (2)

فِيَا حَبْنَدَا مَنْ لَا أَسْمِيَهُ غَيْرَةً وَبِي مِنْ هَوَاهُ مُقَعَدٌ وَمُقِيمٌ
وَيَا حَبْنَدَا دَارٌ يُعَارِزُنِي بِهَا غَزَالٌ كَحَيْلِ الْمُقْلَتَيْنِ رَخِيمٌ

فشاعرنا من الشعراء الذين تزاومت فيهم الأفكار وشطّبت بهم الديار ، حتى صار يقف على الديار ، ويستنطق الأماكن في حوار مع الذات ، فطبيعة الإنسان ميّالة إلى بثّ الأحزان إلى الناس ، ومشاركتهم له مشاعره ؛ ليطلعوا على همومه ومآسيه ظنّاً منه أنهم يخفون عليه هذه الهموم والألام والمعاناة ، فالدار التي وقف الشاعر بيبكها ، لم تكن داراً ذات أثرٍ عابر في حياته ، بل هي دار ضمّت بين حناياها زماناً يحفل بأحلى الأيام ، وما حنينه إليها إلا شوق روحيّ للمكان ، خصوصاً إذا كان المكان هو وطن الألفة والانتماء.

إضافة إلى ذلك فقد أسهمت اللغة الشعرية المراوغة لدى الشاعر في نسخ المعاني الجمالية ، إلى تحوّل موضوع الحنين والطلل إلى نسقٍ فكري أيّدولوجي بفعل توظيف رؤى الشاعر للمعاني المتعلقة بالموضوع .

ويقول أيضاً: (3)

فَأِنِّي عَلَى دَارِ الْحَبِيبِ لَوَاقِفٌ وَإِنْ شَفَّ قَلْبِي رَسْمُهَا وَشَجَانِي
فَلَوْ كَانَ مَا أَلْقَى مِنَ الْحُزْنِ وَاحِداً بَكَيْتُ بِدَمْعٍ وَاحِدٍ وَكَفَانِي

يقف الشاعر وقفة استتثار معها ذكرياته وتجسّد حالته النفسية تلك اللحظة حين استرجع الماضي الذي افتقده وحوته تلك الأطلال الدارسة ، فهي ديار كان لها وقع في نفسه ، وللدار دلالة العلاقة ، فهي رمز للوصل ، وليست مكان مجرد من الروابط .

القصور:

(1) المكان في شعر الشريف الرضي ، دراسة فنية ، زينب عبدالكريم حمزة الخفاجي ، رسالة ماجستير ، كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد ، 1423 هـ ، 2002 م ، ص 98 .

(2) الديوان ، ص 318 .

(3) الديوان ، ص 355 .

القصور مظهر حضاري يميّز السادة والأشراف عن غيرهم في أماكن المدينة ، والقصور هي منازل الملوك والأمرء وتشير إلى سلطانهم وهيبتهم على الأرض⁽¹⁾

يقول بهاء الدين زهير في حديثه عن القصور⁽²⁾ :

تُخَصُّ بِهِ مِصْرٌ وَأَكْنَافُ قَصْرِهَا فَيَا حَبَّذا مِصْرٌ وَيَا حَبَّذا الْقَصْرُ
بِعَيْشِكَ قَبْلَ سَاحَةِ الْقَصْرِ سَاجِدًا وَقُمْ خَادِمًا عَنِّي هُنَاكَ وَلَا صُغْرُ

وظّف الشاعر (القصر) في غرضٍ آخر غير الذي جعل له وهو السكن ، فالقصر عنده رمزٌ للسيادة والحكم فنفذ منه في شعره ليظهر الرفاهية التي كانت تعيشها مصر في ذلك العصر ، فالقصور ترمز للسيادة والغنى والرفاهية .

ويقول أيضًا⁽³⁾:

حَبَّذا دَوْرٌ عَلَى النِّيبِ لِ وَكَاسَاتٌ تَدَوْرُ
وَمَسْرَاتٌ تَمُوجُ الـ أَرْضٌ مِنْهَا وَتَمُورُ
وَقُصُورٌ مَا لِعَيْشٍ نَلْتُهُ فِيهَا قُصُورُ

فالشاعر يبين في الأبيات السابقة ما لعيشة المكان (القصر) من ترفٍ وبذخ ، ووصف هذه القصور عادة ما يُبرزُ فيها من جمال ويظهر تفاعل الشعراء معها وامتزاج مشاعرهم مع أجواء ذلك المكان .

المطلب الثالث : أماكن الطبيعة :

البياتين والرياض :

للطبيعة موقع في نفس الشاعر ، فالبياتين والرياض من الأماكن التي وظّفها الشاعر ، فهي من الأماكن المحببة والأليفة ، وقد رسم صورها لتوضح معادلة فاعلية البياتين في نفسه ، كما إن هذه الأمكنة (البياتين والرياض) استخدمها في مدحه للأمرء والحكام والأصدقاء ، ويقرن بينهم وبين هذه الأماكن لأنه متعلق بها ومحبة إلى قلب الشاعر ، يقول بهاء الدين زهير⁽⁴⁾:

⁽¹⁾ ينظر : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، عبدالله بن عبدالعزيز البكري ، تحقيق : مصطفى السقا ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1945 م ، 515/2 ، 517 .

⁽²⁾ الديوان ، ص 127 .

⁽³⁾ الديوان ، ص 143 .

⁽⁴⁾ المصدر السابق ، ص 128 .

لَأَعْلَمُ أَنِّي فِي الثَّنَاءِ مُقَصِّرٌ وَأَنَّ الَّذِي أَوْلَيْتَ أَوْفَى وَأَوْفَرُ
عَلَى أَنَّ شُكْرِي فِيكَ حِينَ أَبْتُهُ يَرَوْقُكَ مِنْهُ الرُّوضُ يَزْهُو وَيُزْهِرُ

يتعامل الشاعر مع المكان ليظهر من خلاله حسن أخلاقيات أهله ومكانتهم في قلبه أو ممدوحه فالمكان - هنا - ما هو إلا مرآة عاكسة تعكس أوضاع المجتمع والأفراد الذين يتعامل معهم الشاعر ، فينتقل من خلاله من منطلقات اجتماعية ، ف (الروض يزهو ويزهو) من ثناء الشاعر على ممدوحه ، فعلى قدر ما في الروض من حسن وجمال وبهاء ، على قدر ما في الممدوح من قيم وصفات أخلاقية وخلقية جميلة تلفت الأنظار وتجعله كالروضة الحسناء وكالبستان المزهو .

وكما استخدم الشاعر الرياض في غرض المدح ، استخدم الروض في الرثاء ، وقرن المرثي مع الروض ، وجعل هذا بسبب ذلك ، قال يرثي أحد أصدقائه (1) :

أَتَمْضِي أَنْتَ مُنْفَرِدًا وَأَبْقَى لَقَدْ غَدَرْتَكِ نَفْسُكَ يَا وَفِي
فَهَلْ حَقٌّ حَيَاتِكَ يَا زُهَيْرُ وَهَلْ حَقٌّ وَفَاتُكَ يَا عَلِيُّ
وَحَقًّا صَارَ ذَاكَ الْبَحْرُ يُبْسًا وَصَوَّحَ ذَلِكَ الرُّوضُ الْبِهْيُ

يتكلم الشاعر مع نفسه متسائلاً ومذهولاً ومندهشاً من وفاة صديقه فيقول : (هل حق حياتك يا زهير) بمعنى أن حياته لم تعد ذات طعم بعد وفاة صديقه ، وكرّر التساؤل في الشطر الثاني من البيت بأداة الاستفهام نفسها (هل) وجمع بين الحياة والموت (هل حق حياتك) و(هل حق وفاتك) ، ثم إن البحر صار يبساً و(صوّح) الروض أي صار يابساً لا حياة فيه بعد أن كان مزهراً معشوشباً ، فقد قام الشاعر بتوظيف الرياض ليعبر به عن نفسيته الحزينة .

ويقول أيضاً مشبهاً محبوبته بالبستان (2) :

كَأَنَّمَا هِيَ بُسْتَانٌ خَلَوْتُ بِهِ وَنَامَ نَاطِرُهُ سَكَرَانَ قَدْ طَفَّحَا
تَفْتَحَ الْوَرْدُ فِيهِ مِنْ كَمَائِمِهِ وَالنَّرْجِسُ الْغَضُّ فِيهِ بَعْدُ مَا انْفَتَحَا

رسم الشاعر لنا لوحة جميلة للمكان ، فأحاله إلى مكان ينطق بالروعة والشاعرية الحاملة ، فأضحى مكاناً مريحاً تميل النفوس إليه وتستمتع حين تجلس فيه ، كل هذا ليبين مكانة صاحبه في قلبه ، فقام بتشبيهها

(1) الديوان ، ص 386 .

(2) المصدر السابق ، ص 71 .

بالبستان المورق المزهر ، فعندما ذكر الشاعر تفاصيل المكان في البيت فهو بذلك يذكر تفاصيل محبوبته وما فيها من جمال ، حيث استدعى البستان وربط بينه وبين جمالها .
السماء :

حظي هذا المكان باهتمام الشعراء عبر العصور المختلفة ، فكان له حضور متميز في شعرهم ، ففي السماء توجد النجوم والكواكب والسحب والظواهر الكونية الأخرى ، فعبروا من خلال هذا المكان عن رؤيتهم الفنية في تصوير تلك الطبيعة .

وقد حمل شعر شاعرنا العديد من ظواهر السماء ، ورسم الصور المعبرة عن ذلك ، وماتثيرة هذه الظواهر من إحياءات جمالية .

ويأخذ ذكر السماء كمكان أحياناً أخرى دلالات يعبر بها الشاعر عن استحسانه لإمرأة أو إعجابه بها ، فيطلق عليها اسماً من الأسماء التي في ذلك المكان وهو (السماء) ، ويكون ذلك غالباً عن طريق التشبيه ، فإن الشاعر عادة ما يشبه الممدوح بالقمر أو الشمس أو بالنجم ، أو بأشياء أخرى ونجد ذلك كما في قول بهاء الدين زهير⁽¹⁾ :

حَتَّى وَصَلْتُ سُرَادِقَ الْمَلِكِ الَّذِي تَقِفُ الْمُلُوكُ بِبَابِهِ تَسْتَرْزِقُ
وَوَقَفْتُ مِنْ مَلِكِ الزَّمَانِ بِمَوْقِفِ أَلْفَيْتُ قَلْبَ الدَّهْرِ فِيهِ يَخْفِقُ
فَأَلَيْكَ يَا نَجْمَ السَّمَاءِ فَإِنَّنِي قَدْ لَاحَ نَجْمُ الدِّينِ لِي يَتَأَلَّقُ

فالشاعر في الأبيات الماضية يمدح الملك الذي تقف الملوك عند باب سرادقه ، ويقص حكايته معه والهيبة التي كان الملك يحظى بها ، حتى أن (قلب الدهر) كان يخفق ، حيث لجأ الشاعر إلى التشخيص في هذا البيت ليبيّن المكانة التي وصل إليها ممدوحه ، ثم وصفه بأنه (نجم) دلالة على علو المرتبة ، فالشاعر أراد أن يظهر علو مكانة ممدوحه ورفعته فأتى بـ(السماء) وهي المكان الذي يتواجد فيه المشبه به (النجم) ليصوّر به العلو وتلك المكانة الرفيعة التي تميّز بها الممدوح .

وهنا تأخذ الاستعارة غاية شرفها ، ويتسع لها المجال كيف شاءت في تفننها وتصرفها كما يقول (عبدالقاهر الجرجاني)⁽²⁾ حيث رأى في تقسيمها إلى ثلاثة أصول هي :

⁽¹⁾ الديوان ، ص 225 .

⁽²⁾ أسرار البلاغة في علم البيان ، عبدالقاهر الجرجاني ، قرأه وعلّق عليه : محمود محمد شاكر ، دار المدني بجده ،

(د.ت) ، ص 66 .

- 1 - أن يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجملة للمعاني المعقولة .
- 2 - أن يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة لمثلها ، إلا أنّ الشبه مع ذلك عقلي .
- 3 - أن يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول .

المطلب الرابع : الإيقاع الفني في شعر المكان :

ميّزَ القدماء من علماء العربية الشعر من النثر لما اشتمل عليه من الأوزان والقوافي ، فالموسيقى هي أبرز صفات الشعر ، كما أن هذه الموسيقى ليست وقفًا على الوزن والقافية ، بل إنها جميع الخصائص النغمية كالتماثل في الحروف والمقاطع وتتابع الكلمات وقياسها .

وسنكتفي في هذا المقام الضيق بالحديث على (تكرار المكان) في شعر الشاعر ، ويقصد به تكرار الشاعر للمكان في أبياته ، وما يشكله من إيقاع فني ، وما تميّز به من موسيقى .

التكرار لغة :

هو " مصدر الفعل كرّر أو كرّ ، يقال : كرّه وكرّه بنفسه ، يتعدى ولا يتعدّى ، والكرّ : مصدره كرّ عليه ، يكرّ كرًا وتكرارًا عطف ، وكرّ عنه رجع ، وكرّ على العدو يكرّ ، ورجل كرّار ومكر ، وكذلك الفرس ، وكرّر الشيء وكركره : أعاده مرة بعد أخرى ، والكرّة المرّة ، والجمع : الكرّات ، ويقال : كررت عليه الحديث وكركرته إذا رددته عليه ، وكركرته عن كذا كركرّة إذا رددته ، والكر : الرجوع ، على الشيء ومنه التكرار ... قال أبو سعيد الضهير :

قلتُ لأبي عمرو : ما بين تَفْعالٍ وتَفْعالٍ ؟ فقال : تَفْعالٍ اسم ، وتَفْعالٍ بالفتح مصدر " (1)

التكرار في الاصطلاح :

حدّه (ابن الأثير) بقوله : " هو دلالة اللفظ على المعنى مردّدًا " (2)

والتكرار ظاهرة أسلوبية حظيت باهتمام كبير من قبل النقاد قديمًا وحديثًا ، لما تضطلع به من دور هام في بناء القصيدة العربية ، كما إنه يشكل إحدى المرايا العاكسة لكثافة الشعور المتراكم في نفس الشاعر .

وعندما نتناول تكرار المكان في شعر بهاء الدين زهير ، فإننا لا نقصد به التركيز على تكرار اللفظة في السياق الشعري ، وإنما ما تركه هذه اللفظة من أثرٍ انفعالي في نفس المتلقي ، فكلُّ تكرار يحمل في ثناياه دلالات نفسية وانفعالية مختلفة تفرضها طبيعة السياق الشعري .

(1) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (ك . ر . ر) .

(2) المثل السائر ، ابن الأثير ، تحقيق : محمد معي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ،

ولعلّ أقدم من نبّه إلى أسلوب التكرار وتنوّع صيغته وتعدد مراميّه هو (الجاحظ) الذي قال: "إنه ليس فيه حدٌ يُنتهى إليه ، ولا يؤتى على وصفه" (1)

وقد كثر التكرار بأنواعه في شعر بهاء الدين زهير ، فأعطى موسيقى مؤثرة نلاحظها من خلال قراءتنا للبيت التالي ، يقول: (2)

مَنَازِلُ كَانَتْ لِي بِهِنَّ مَنَازِلٌ وَكَانَ الصِّبَا إِيَّيَّهَا وَقَرِينِي

فنلاحظ من خلال البيت هيمنة كلمة (المنازل) التي تكررّت في الشطر الأول من البيت مرتين ، وساعد تكرار هذا المكان في توضيح المشاعر والأحاسيس التي يمر بها الشاعر ، وهذه المشاعر والأحاسيس هي الحنين إلى ذلك المكان الذي يكرره .

وتكرار الكلمة من أسهل أنواع التكرار وأبسطها ، بشرط أن يتم استخدامها في موضعها " وإلا فليس أيسر من أن يتحوّل هذا التكرار نفسه بالشعر إلى اللفظية المبتذلة ، التي يمكن أن يقع فيها أولئك الشعراء الذين ينقصهم الحس اللغوي والموهبة والأصالة " (3) ويكرر شاعرنا المكان أيضاً فيقول (4) :

سَقَالِكِ صَوْبُ الْحَيَا يَا دَارُ يَا دَارُ فَكَمْ تَقَضَّتْ لِقَلْبِي فِيكِ أَوْطَارُ
وَحَبَّذَا فِيكِ آثَارُ أَشَاهِدُهُمَا مِنْ الْحَبِيبِ لَهَا فِي الْقَلْبِ آثَارُ

ساعد تكرار كلمتي (دار) و(آثار) في البيتين الماضيين على إبراز معاني الألم عند الشاعر ، فالشاعر يدعو بالسقيا لهذه الديار على عادة الشعراء الجاهليين ، ويبين موقعها في قلبه ، والذكريات التي كانت مع هذا المكان ، ويشكّل تكرار المكان في البيتين إيقاعاً موسيقياً مميّزاً ويبين ما تجيش به نفس الشاعر ، وأظهرت مدى براعة الشاعر في استخدام التكرار اللفظي للمكان ، زاد من ذلك استخدامه لحروف متجانسه أبرزها حرف (راء) في كلمات (دار – أوطار – آثار) ، حيث اكتسبت هذه الكلمات أهميتها من خلال السياق الشعري للقصيدة .

(1) البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط 5 ، 1405 هـ _ 1985 م ، 1 / 105 .

(2) الديوان ، ص 360 .

(3) قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، مطبعة دار التضامن ، بغداد ، ط 2 ، 1965 م ، ص 264 .

(4) الديوان ، ص 147 .

ويقول أيضاً مردداً اسم موطنه (مصر): (1)

تُخَصُّ بِهِ مِصْرٌ وَأَكْنَافُ قَصْرِهَا فَيَا حَبْنَا مِصْرٌ وَيَا حَبْنَا الْقَصْرُ

نلاحظ كلمتي (مصر - القصر) حيث تعمد الشاعر ذكر هذين المكانين ، فارتبطا بدلالات معينة ، فالصدر والعجز هما مسرح التشكيل التكراري في البيت الشعري ، فكلما تباعدت الكلمات المكررة أو تقاربت كلما تحدد النوع البلاغي ، إن " تعميق الدلالة يعتمد على التعبير عن فكرتين بلفظ واحد ، بحيث تتحدد طبيعة كل لفظة عن طريق الاستعمال الذي آثره الشاعر ، وهو بذلك يضيف إلى النمط المعجمي لونا من العمق مؤدياً إلى كثافة دلالية " (2)

لخاتمة والنتائج

كانت غاية هذا البحث هو توضيح كيف قام الشاعر (بهاء الدين زهير) بتوظيف المكان في شعره ، وقد عامل الباحث المكان في بحثه هذا من منظور جمالي دلالي ، ووجد الباحث أنّ المكان لا يكون جميلاً إلا إذا ارتبط بقيمة معينة ، وكلما تعددت القيم تعددت نواحي الغنى الجمالي للمكان .

وقد تجلّى المكان الاجتماعي في شعر الشاعر والمتمثل في (الطلل والقبيلة) ، فقد ذكر الشاعر مجموعة من الأمكنة مثلت مكانة مهمة لديه ، ومنها المكان الطللي ، فهو المكان الذي يرتبط بالمرأة الحبيبة ، والمادة الغنية الخصبة لخلق خياله ، وهو مكان الألفة واللقاء ، غير أنّ الزمان أثار في هذا المكان ، فحوّله من مكان آمن إلى مكان موحش خرب ، وقد اعتمد الشاعر في حديثه عن المكان الطللي على ثلاثة محاور : الزمان والمكان والمرأة ، فتحوّل المكان إلى رمز إنساني يأخذ في كثير من دلالاته منجىً جمالياً وفق رؤية جديدة .

وكانت الطبيعة متنفساً حقيقياً للشاعر ، فوجد في مفرداتها الملاذ الآمن لنفسيته ، فاخترت صوته المباشر عن المعاناة في هذا المكان ، وأشرك معه المظاهر الطبيعية من رياض وزهور وغيرها ، فبدأ المكان الطبيعي فضاءً من الرموز الناطقة ، وتردد صوته على ألسنة مفردات المكان الطبيعي ، فقد كان شديد الحسّ بها ، ومن هنا شكّل بهاء الدين زهير ظاهرة فنية مستقلة في الأدب العربي لها خصائصها ومقوماتها .

كان لتكرار المكان دور مهم في التعبير عن نفسية الشاعر ، فكان تكرار الأماكن مرآة عاكسة لكثافة الشعور في نفس الشاعر ، ومصباحاً مضيئاً يقود القارئ إلى الكشف عن المعاني التي أرادها من خلال تكرار المكان ، إضافةً إلى دورها البارز في إحداث نوع من الإيقاع داخل النص .

كما أن دراسة الباحث لتكرار المكان في شعر الشاعر ، بيّنت أن العبارة الواحدة عندما تتكرر أكثر من مرة ، فهي حينئذٍ تمثّل إلحاح الشاعر على فكرة معينة ، والتعبير عنها بشدة .

(1) المصدر السابق ، ص 127.

(2) التكرار النمطي في قصيدة المدح عند حافظ ، دراسة أسلوبية ، محمد عبدالمطلب ، مجلة فصول ، م 3 ، ع 3 ،

1983 م ، ص 51 .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم: قالون عن نافع

- أسرار البلاغة في علم البيان ، عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلّق عليه : محمود محمد شاكر ، دار المدني بجده ، (د.ت) .
- بنية اللغة الشعرية ، جان كوهن ، ترجمة : محمد الولي محمد العمري ، دار نويقال للنشر ، ط 1 ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1986 .
- البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط 5 ، 1405 هـ - 1985 م .
- تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي ، تحقيق : حسين نصار ، مطبعة حكومة الكويت ، 1394 هـ - 1974 م .
- التعريفات ، على بن محمد الجرجاني ، طبعه وصححه جماعة من العلماء ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، بيروت - لبنان ، 1403 هـ - 1982 م .
- جماليات المكان ، غيستون باشلار ، ترجمة : غالب هلسا ، الدار الوطنية للنشر ، 1980 م .
- جمهرة اللغة ، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ، ط 1 ، دار الباز ، 1345 هـ .
- الحيوان ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ، ط 1 ، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، 1386 هـ .
- ديوان بهاء الدين زهير ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، 1400 هـ ، 1980 م .
- شاعرية المكان ، جريدي المنصور الثبتي ، شركة دار العلم للطباعة والنشر ، ط 1 ، المملكة العربية السعودية ، 1412 هـ - 1992 م .
- عبقرية الصورة والمكان ، طاهر عبد مسلم ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، ط 1 ، عمان / الأردن ، 2002 م .
- العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط 4 ، 1972 م .
- فلسفة المكان في الشعر العربي ، حبيب مونسي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2011 م .
- قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، مطبعة دار التضامن ، بغداد ، ط 2 ، 1965 م .

- لسان العرب ، ابن منظور الإفريقي ، عُني بتصحيحه : أمين محمد عبدالوهاب ، محمد الصادق العبيدي ، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي بيروت – لبنان ، ط3 ، 1419 هـ - 1999 م.
- المثل السائر ، ابن الأثير ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1999 م .
- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، عبدالله بن عبدالعزيز البكري ، تحقيق : مصطفى السقا ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1945 م .
- نظرية المكان في فلسفة ابن سينا ، حسن مجيد العبيدي ، مراجعة وتقديم : عبدالأمير الأعسم ، (د.ت) .
- الوافي بالوفيات ، صلاح الدين الصفدي ، تحقيق : أبو عبدالله جلال الأسيوطي ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .

المجلات العلمية :

- التكرار النمطي في قصيدة المدح عند حافظ ، دراسة أسلوبية ، محمد عبدالمطلب ، مجلة فصول ، م 3 ، ع 3 ، 1983 م .
- جماليات المكان ، اعتدال عثمان ، مجلة أقلام ، بغداد ، ع 2 ، 1986 م .
- حول محطة السكة الحديد ، لادور الخراط ، صيري الحافظ ، مجلة أقلام ، العدد 11 – 12 ، 1986 .
- ماهية المكان لدى شعراء الجنوب ، عبدالرحمن حمادي ، مجلة الباحث ، ع : 2 ، 3 ، السنة الرابعة ، 1981 ، 1982 م .

الرسائل الجامعية :

- المكان عند الشاعر العربي قبل الإسلام ، حيدر لازم مطلق ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 1407 هـ . 1987 م .
- المكان في شعر الشريف الرضي ، دراسة فنية ، زينب عبدالكريم حمزة الخفاجي ، رسالة ماجستير ، كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد ، 1423 هـ ، 2002 م .
- المكان في الشعر العراقي الحديث ، سعود أحمد يونس القيسي ، (رسالة ماجستير) ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، 1417 هـ - 1996 م .